العنف

أسبابه وخلفياته النفسية . . والاجتماعية

د . أحمد المراياتي

عندما يسمع الإنسان كلمة " العنف " يشعر بشيء من الصدمة مع العجز .. فالجميع – العاقل – يكره العنف ويتمنى أن يستطيع التخلص منه .. ولكن كيف ؟!

لقد اعتاد الإنسان العيش على مدار القرون في جو من القسوة والعنف واستطاع التغلب عليه والمحافظة على الحياة وتطورها خلال آلاف السنين الماضية .

في العقود الأخيرة تزايد تواتر العنف وازدادت شدته وعظم خطره وأصبح يهدد البشرية أكثر من الماضي وبشكل عنيف .

ولا بد من الإشارة إلى أن العنف " Gewalt " في الألمانية ، " Violence " في الإنكليزية ، هو غير القوة أو الشدة أو الغلظة أو السلطة .. إن تعريف العنف مرتبط بكثير من **العوامل** منها السياسية ومنها الاجتماعية ومنها مصالح الحكومات والمؤسسات والشعوب وحاجاتها وكذلك تصورات الجماعات الإنسانية في ظروف ما وفي مكان ما ..

وللعنف أيضاً **مجالات** مختلفة ؛ فهو قد يكون ضمن الأسرة موجهاً للأطفال أو النساء .. وقد يكون في المدرسة بين التلاميذ أنفسهم ، أو بين التلاميذ ومعلميهم ، وقد يكون العنف موجهاً ضد المسنين والعجزة .. وهناك العنف المرتبط بالجنس ، والجنس المرتبط بالعنف .

وهناك العنف المنظم والعنف الفردي .. كما أن هناك العنف بين الدول ، والعنف ضمن مؤسسات الدولة الواحدة .. والعنف المرتبط بمناطق وأحياء معينة يزداد فيها عن سواها .

يركز الباحثون والمتابعون بشكل رئيسي على العنف الصادر أو الآتي من قبل الشباب ، وهم أي الشباب غالباً النسبة الأعلى التي تمارس العنف ، فالعنف من قبل المسنين نادر ، والعنف الممارس من قبل النساء أندر إذا قورن بما يقوم به الشباب .

عند الحديث عن أسباب العنف كثيراً ما يركّز الناس على أن أهم الأسباب هو ما يعرض في وسائل الإعلام من مسلسلات يمارس فيها العنف أو ألعاب الكومبيوتر ذات المحتوى المقزز عنفاً ، وفي هذا تبسيط للمشكلة ، وهروب من البحث عن أسبابها النفسية والاجتماعية الكامنة في التركيبة أو التركيبات الاجتماعية الحالية ، وقد درس هذه الظواهر الأستاذ الباحث في علم الجريمة " Pfeiffer " من هانوفر وبيّن أن محتوى الأفلام والألعاب هذه لا يؤثر إلا على المستعدين أو المهيئين للتلقي من هؤلاء الشباب . إذن هناك عوامل كامنة وموجودة في شخصية هؤلاء ، وأحياناً قد يؤدي ، هذا النوع من الإعلام ، عند البعض الآخر إلى ردّ فعل معاكس فيه الكره والتقزز من الممارسات العنفية . لذلك لا بد من البحث عن أسباب العنف في زوايا أخرى .

هنا لا بد مرة ثانية من تقرير حقيقة ثابتة ، هي أن ظاهرة العنف توجد بشكل رئيسي إن لم نقل حصراً بين الشباب الذكور ، وهنا لا نريد القول أن هذه الظاهرة ظاهرة بيولوجية فقط ، لأننا عندها نتجاهل العوامل التربوية والاجتماعية التي تلعب دوراً كبيراً في تكريس هذه الظاهرة عند الشباب !!

ونذكر أن الذكور يربون على تجاهل العاطفة وتبني القوة ومظاهرها ، ومن نتائج ذلك قلة التأثر والانفعال العاطفي " وكلامة " المشاعر ، وهذا عامل يهيء استعداداً لممارسة العنف .

– هناك اضطراب في التوازن الاجتماعي حيث فسح المجال للشابات بأخذ مواقع الرجال على كل الأصعدة الممكنة (التي كانت في الماضي مقتصرة على الرجال) مثل قيادة الباصات والقطارات والعمل في المصانع والحرف الصعبة وكذلك الرياضات ككرة القدم والملابس .. إلخ ، ولم تهيء فرص مقابلة للشباب .. ولا يقبل بسهولة من الشاب – مجازاً – أن يأخذ دوراً من أدوار المرأة ؟ .. (إقصاء دون تهيئة أو تمهيد)

إذن دور المرأة كأمرأة بدأ يفقد حدوده ويتحول ليأخذ دور الرجل معه ، ودور الرجل بدأ يتضاءل ويتحجم ، وبدأت صعوبات عامة عند الشباب في البيت والمجتمع والعمل مع عدم الإغفال هنا أن المرأة بدأت تهمل دورها التربوي الهام ضمن نطاق الأسرة ..

ولكن في الوقت نفسه استمر التأكيد تربوياً على الفروق بين الجنسين بيولوجياً واستمرت نظرة الرجل لنفسه على أنه الأقوى وصاحب السلطة .. دون التأكيد في التربية على معاني المروءة والكرامة والشهامة والعدالة واللطف والمحبة .. مما ساعد على تأصيل جذور العنف عند كثير من الشباب .

ومما يمكن أن يكون عاملاً مؤثراً في تسهيل التوجه نحو ممارسة العنف عدم تحمل الشباب لمسؤولية أسرة وزوجة وأطفال ، وما يمكن أن يسمى التفلت الأسري والاجتماعي في هذا المجال والمسؤولية تكريس للعقلانية .. الكابحة للعنف .

ثم أيضاً الانغلاق والانحباس في جو محدود وبيئة معينة ، دون وجود إمكانات الانطلاق ، والتعرف على المحيط ، وعلى الموجود من حولنا ، يمكن أيضاً أن يوجه الطاقة باتجاه العنف والعداء لما هو مجهول أو ما هو آخر! .

ولا بد من الإشارة إلى أنه مما لا يستغنى عنه بالنسبة لتوازن العواطف الإنسانية ؛ الارتباطات والصلات الاجتماعية ، وكذلك روابط **المحبة** ؛ بين المرء وزوجه ، بين الأهل والأطفال ، بين الأسر والمجتمع المحيط من حولها وذلك لحماية الضعفاء والضرب على يد المعتدين! . وهنا نقول بشيء من التوضيح أن :

– الوحدة والانعزال أو الانفراد والتقوقع تعني الموت المباشر أو غير المباشر ، فترك الوليد بعد الولادة لوحده يؤدي إلى موته .

– وعزل الفرد عن محيطه يؤدي إلى موته العاطفي إن لم يكن الجسدي .

– وعزل مجتمع عن محيطه يؤدي أيضاً إلى تجمده إن لم يكن فيه بذور الحياة والتطور ، إذن لا بد من الخروج والاتصال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات : ١٣]

وقد أثبتت الدراسات أن الوليد الذي يعطى طعاماً وشراباً وتنظيفاً فقط دون العطف والرعاية والمحبة والحنان ينشأ مضطرب النفسية إن لم يكن مقتول النفس ، وقد أثبت الباحث " James De Meo " في دراساته المعمقة والواسعة ، وذلك في مقارناته بين ظروف النشأة الاجتماعية في الثقافات المختلفة ، أن الأعراف التي تتعامل مع الأطفال والرضع بأساليب راضة " Traumatic " ومؤلمة ولا تسمح لانفعالات هؤلاء العاطفية والجنسية أن تظهر وتناقش ، ويعبر عنها وتوصف ، تولد شباباً عصابيين " Neurotic " يميلون للعنف وحتى إيذاء الذات ، في حين أن المجتمعات التي تربي أطفالها على العطف والرقة والهدوء ، وتقدم لهم الحنان والمحبة ولا تضغط على مشاعرهم (لا ألم – لا عنف) شبابها صحيحي النفس ومتوازنين ، ولا وجود لمظاهر العنف بينهم [١] .

إن الخجل والتقوقع والانعزال هي صفات الشخصية « المقموعة » في الصغر من قبل الأهل أو المجتمع المحيط (شخصيات مورس عليها العنف في الصغر) وهذه بدورها تمارس العنف (القهر والشدة) على أولادها .. ومن حولها وهكذا .. ، أو تصاب هذه الشخصية بالإرهاب الاجتماعي « Sozialophie » .

(١) الدراسات الجغرافية والتاريخية المرتبطة بتطور سلوك المجتمعات والأفراد أثبتت أن سكان الصحارى تغيرت سلوكياتهم بما يتناسب مع الأجواء بعد أن كانوا قبلها – في المدن المرفهة قبل التصحر – أكثر ميلاً بوضوح للسلام والتعاون ..

هنا تفيد الإشارة إلى أن هناك مؤسسات (مساجد/جمعيات/كنائس) تتبنى في منهجها قمع الحاجات الأساسية للإنسان مما يؤدي إلى كبت الطاقات ثم تفجرها بأشكال عنيفة مختلفة ولا نستثني هنا عدم توجيه الحاجات الجنسية بالشكل الإنساني الصحيح (قوائم من الممنوعات .. ولا بدائل) .

كيف ينشأ العنف ؟

لم تكن البيئة أو الجو المحيط بالإنسان بحال من الأحوال هو العامل الوحيد في نشوء العنف ، وهناك عوامل ثلاثة رئيسية لنشوء العنف هي :

① التعرف على العنف ضمن الأسرة : « المعنّف يمارس العنف » .

② إهمال المجتمع المديد (المستمر) لمجموعات معينة (أجانب/مهاجرين) (الشعور بالإهمال والحقد على المجتمع من حولهم) .

③ ضآلة فرص العمل وصعوبتها ، وخاصة بسبب تدنّي المستويات العلمية عند مجموعات معينة من الشباب . (فقد الأمل ، ثم القنوط ..) [٢] .

هناك بواعث أخرى للعنف يمكن تعدادها :

١- تزايد الفقر .

٢- نقص أو فقدان المنشآت الترفيهية والتربوية المناسبة .

٣- الالتزام بمجموعات (عصابات) .

٤- حب الذات والنشوء عليه (الأثرة) .

٥- الملل وكثرة أوقات الفراغ .

٦- ضغط المجتمع الاستهلاكي (معك شيء فأنت شيء ؟!) ، ومحاولة امتلاك ما هو فوق القدرة تحت ضغط المظاهر! .

(٢) وهناك إحصائيات كثيرة تدلل على هذه العوامل (Prof. Pfeiffer) .

٧- العنف الفجائي الناشيء عن الاحتقان النفسي « Affektstau »

دعونا في نهاية الحديث نسلط الضوء على بعض معاني السلام والأمان وخلفياته لعل ذلك يلقي أيضاً الضوء على طرقات الانتقال النفسي من العنف إلى الأمن والسلام :

إن السلبية والانكماش لا تعني السلام ، فخلو الشوارع في ساعات منع التجول لا تعني السلام في هذه الشوارع . إن السلم هو موقف عقلي ، موقف نفسي ، موقف شعوري ، فلا بد من أن يبدأ سلام الإنسان مع نفسه أولاً ، فيسعى ويتعلم أن يصون نفسه ومشاعره وعواطفه ، عندها يستطيع أن يصون ويحترم مشاعر وعواطف وأجسام الآخرين ، وهذا يعني رفض العنف ، وهذا يعني أيضاً احترام نواميس الكون والمخلوقات من حوله والتآخي معها جميعها ، ويعني أيضاً شكر كل مخلوق لخالق الكون والمجتمع المحيط من حوله ، الذي يؤمّن له الأمن والاستقرار ، ويحميه من العنف .

من يريد الأمن والسلام والاستقرار يجب أن يشعر أنه مسؤول في هذا الكون عن كل شيء ، بمعنى مسؤول عن أمن كل شيء : إنسان كان أو حيوان أو نبات ، يشعر أنه مسؤول عن وجود هذه المخلوقات بأفضل حالاتها ويرعاها ويحميها ، بل يمنع إن استطاع أحداً من إيذائها .

من يريد الأمن يجب أن يكون شجاعاً في مواجهة الواقع .. يجب أن يتحرر من الخوف .. ويتحرر من الجشع والأنانية .

من يريد الأمن يجب أن ينسجم مع الكون من حوله بتعقل وواقعية وعملية .

كيف نزرع هذه المعاني في القلوب .. ؟ يجب أن تريد العقول سلوك هذا الطريق .

تعامل الإسلام مع العنف وقائياً وتربوياً [٣] :

(٣) يراجع موضوع الأستاذ عصام العطار « الإسلام دين العنف » في العدد ٢٤٨ من الرائد .

١- دعا الإسلام إلى السلام والمسالمة : ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الأنفال : ٦١] .

٢- الإسلام يأمر بالعدل فيقطع الطريق على العنف : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل : ٩٠] .

٣- الإسلام أمر بالرحمة والتراحم : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، « **... مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ** » رواه البخاري .

٤- حارب الإسلام الإكراه : ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ** ... ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وهذه حرية الاعتقاد .

٥- حَفِظَ حقوق غير المسلمين وحماهم : « **أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا ، أَو انْتَقَصَهُ ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » رواه أبو داود ، « **مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا** » رواه البخاري .

٦- النفس البشرية مكرمة : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

٧- حرّم قتل النفس إلا بالحق : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ [الإسراء : ٣٣] ، « **لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا** » رواه البخاري .

٨- دعا إلى التكافل الاجتماعي والتضامن وصيانة الروابط الاجتماعية والأخلاق .